الفصل الأول

قبل أن تنفجر السماء

كانت الأيام الأخيرة من حزيران/يونيو ٢٠١٤ تشبه غزة... وتشبه ما لا يشبهها في الوقت نفسه.

كل شيء على سطح الحياة "يبدو طبيعيًا": الناس تفتح محالها وتغلقها، الأطفال يلعبون بين الأزقة، العائلات تتبادل الزيارات على قدر ما يسمح الخوف، وأذان الفجر يعلو كأنه يذكّرنا أن الدنيا ما زالت تملك نظامًا ما... لكن تحت هذا السطح كانت البلاد كلها تتحرك على أعصاب مشدودة.

في الضفّة والقدس كانت الأخبار تتساقط مثل حجارة: خطف ثلاثة فتيان إسرائيليين «مستوطنين» في ١٢ يونيو، ثم حملة مداهمات واعتقالات واسعة، ثم تصاعد الاحتكاك... وفي غزة كنا نقرأ ذلك كأننا نقرأ فصلًا مألوفًا من كتاب لا ينتهي.

لم أكن في تلك المرحلة من حياتي متفرغًا لملاحقة السياسة ساعة بساعة؛ ليس لأن السياسة لا تعنيني، بل لأن كثرة التوتر هنا تجعل الإنسان — أحيانًا — يتعامل مع العناوين الكبيرة كأنها "ضجيج بعيد"، حتى تأتي اللحظة التي يُسحب فيها الضجيج من السماء ويُوضع داخل بيتك.

كنت أعمل ككاتب في مؤسسة دوحة الإبداع للثقافة والفنون. كنا قد أنهينا قبل فترة قريبة مشروعًا ثقافيًا وفلكلوريًا لإحياء ذكرى النكبة (١٥ مايو ٢٠١٤)، وبعده خفّ ضغط العمل تدريجيًا مع اقتراب رمضان. صارت زياراتي للمؤسسة أقل انتظامًا: يومًا أو يومين في الأسبوع... أحيانًا ثلاثة... وأحيانًا أكتفي بمكالمة أو مرورٍ سريع.

وفي البيت كانت حياتي تسير على خطين متوازيين: خطّ ثقافي/كتابي أحاول أن أتمسك به كي لا تبتلعني الأيام، وخطّ يومي يشبه حياة معظم أهل القطاع: كهرباء تتقطع، نوم متقطع، وقلقٌ ثابت لا يتغيّر.

كنت أكتب — أو أحاول.

أشتغل على نصّ سينمائي/سيناريو، وأفكر في بدء مشروع قديم مؤجل: مذكراتي في روسيا (٢٠١٢)، تلك التجربة التي ظلّت في ذهني كصندوق مغلق. وفي تلك الليالي كنت أستعين بصديقي الأقرب في العمل والكتابة: محمد عمار. كان يأتي أحيانًا إلى غرفتي في بيت العائلة — غرفتي في الطابق الأول، سقفها من الصفيح (الزينكو) — غرفة متواضعة تعرف الصيف والبرد على طريقتها، لكنها كانت "مكتبي" الحقيقي.

نجلس بعد التراويح: أنا على الأرض مستندًا إلى الحائط، ومحمد عمار على كرسي بلاستيك أمام الكمبيوتر المكتبي. نعمل بهدوء: أملي عليه مشاهد وتفاصيل من الفيلم الذي اسميته (أجنحة البلابل)، وهو يكتب... وبين فقرة وأخرى نضحك، نمزح، نرشف الشاي... وأحيانًا — كما كنت يومها — أدخن سيجارة كأنها استراحة قصيرة من العالم.

ثم جاء الثاني من يوليو/تموز، وحدثت الجريمة التي كانت كافية وحدها لتُشعل الشوارع: اختطاف الفتى محمد أبو خضير وتعذيبه وحرقه في القدس. لم يكن الخبر مجرد عنوان. كان صاعقًا. وفي غزة، مثل باقي فلسطين، ارتفع الغضب كأنه "شيء مرئي". الناس تتحدث في الطرقات، في الدكاكين، في بيوت العزاء، وفي أبواب المساجد:

إلى أين يأخذون البلد؟

ما الذي ينتظرنا؟

ومع هذا — وهذه هي المفارقة القاسية — كثيرون منا كانوا يتعاملون مع تصاعد الأحداث على أنه جزء من الروتين السياسي: شدّ وجذب، اغتيال وردّ، صواريخ متفرقة وقصف متفرق... حتى بدا كأن غزة تعيش على حافة الحرب دائمًا، دون أن تقع فعلًا... إلى أن تقع.

لم يحتج الأمر سوى أيام قليلة كي تتدحرج كرة الثلج بسرعة. في ٢٩ يونيو قُتل عنصر من حماس في غارة، وبعدها عادت وتيرة إطلاق

الصواريخ لتعلو، ثم توالت الضربات والردود، ومعها بدأنا نشعر أن “الهواء تغيّر.”

لم تعد السماء مجرد سماء؛ صارت غرفة مراقبة كبيرة.

***

ليلة البريج... حين صار الصوت اسمًا

كانت ليلة الأحد ٦ يوليو/تموز ٢٠١٤ — ليلة التاسع من رمضان تقريبًا — وأنا مع محمد عمار في غرفتي ذات سقف الزينكو. كنّا منهمكين في الكتابة، تلك الكتابة التي تحاول أن تُنقذك من اليوم، أو على الأقل تُعطيك وهم السيطرة عليه.

قرب الحادية عشرة ليلًا، وبلا تمهيد، جاء صوت انفجار مكتوم من جهة الجنوب الغربي للمخيم. لم يكن انفجارًا "بعيدًا" كالمعتاد. كان قريبًا بما يكفي ليجعل الجسد ينتبه قبل العقل. توقف محمد عمار لحظة. توقفت أنا أيضًا. تبادلنا النظرة التي يعرفها أهل غزة:

قصف؟

ثم تلك اللامبالاة المكتسبة من كثرة التكرار:

الله يستر... ونكمل.

لكن هذه المرة لم يكن الصوت "صوتًا" فقط. كان نهاية حياة.

بعد قرابة نصف ساعة إلى أربعين دقيقة — قرابة منتصف الليل — رنّ الهاتف. كان المتصل صديقي محمد أبو سلطان، المعروف بيننا بكنية أبو السيد. بدأ مكالمته كما يفعل دائمًا، بالنداء الذي يعرفني به:

—السلام عليكم يا أبو بلال...

ثم قالها بسرعة كأنها لا تحتمل التأجيل:

—أبو بلال... مازن استشهد. أبو مروان استشهد.

تجمدت لحظة... ثم لم أتجمّد.

الصدمة أتت، نعم، لكن معها جاء شيء آخر يشبه "الاستيعاب القاسي": مازن لم يكن رجلًا عاديًا في يومٍ من الأيام. كان رجلًا يسير نحو نهايته وكأنه يعرف الطريق مسبقًا.

كنت أعرف مازن معرفة لا تشبه الصداقات الطويلة، بل تشبه صداقات المخيم: لقاءات متقطعة، سلامٌ على الطريق، ابتسامة، سؤال ثابت، ثم يمضي كلٌ منا. ومع ذلك، كان حضوره في داخلي واضحًا. رجلٌ فقد شقيقين قبله، ويُقال إن فقدهما غيّر علاقته بالحياة كلها... رجلٌ حين يتحدث عن الموت لا يتحدث عنه كفكرة بعيدة.

أغلقت الهاتف، ونقلت الخبر لمحمد عمار. رأيت الصدمة في وجهه أكثر مما شعرت بها في وجهي. أصر أن نتأكد. أجرينا اتصالات سريعة... وخلال دقائق صار الأمر يقينًا:

القصف الذي سمعناه قبل قليل — القصف الذي ظننّاه "اعتياديًا" — هو الذي استهدف مازن فرج محمد الجربة ورفيقه مروان حسن محمد إسليم، بقصفٍ عند نحو ٢٣:١٠ جنوب غرب مخيم البريج.

في تلك الساعات كانت غزة كلها تُساق إلى نقطة اللاعودة. وبحلول فجر اليوم التالي، كانت الأخبار تقول إن شهداء القطاع ارتفعوا إلى تسعة خلال أقل من ٢٤ ساعة، بعد قصف رفح واستشهاد سبعة هناك، إضافةً إلى شهداء في الوسط.

الأرقام كانت تُعلن كأنها خبر طقس... لكنها في الحقيقة كانت إعلانًا مبكرًا: الحرب على الأبواب.

***

التشييع... حين يصبح المخيم جسدًا واحدًا

صباح الاثنين ٧ يوليو/تموز خرجنا مع الناس. لم نذهب وحدنا؛ المخيم كله ذهب. عند مدخل البريج كان الازدحام كثيفًا، كأن المخيم يريد أن يثبت أن أبناءه لا يودّعون وحدهم. حملناه في مشهد مهيب، ثم إلى البيت، ثم إلى المسجد الكبير للصلاة عليه.

في المسجد، وأنا أقترب من الجثمان، شعرت أن هناك كلمات لا تُقال بصوت عالٍ. قلتها له همسًا عند أذنه، كما لو أن الهمس أصدق من الخطابة:
وداعًا يا مازن... والملتقى الجنة.
ثم خرجنا إلى المقبرة.

دُفن مازن، ودُفن معه شيء من "الطمأنينة المؤقتة" التي كنا نخدع بها أنفسنا. بعد أن بدأ الناس يغادرون، بقيت قليلًا. بقي محمد عمار معي. كنت أملك هاتفًا قديمًا بكاميرا متواضعة، وسجلت فيديو قصير قرب القبر؛ دعاء، كلام عن الرحمة، عن الظلم، عن الشباب الذين يرحلون قبل أن يكتملوا... كلمات لم تكن مرتبة، لكنها كانت صادقة.

حين عدت إلى البيت، لم يكن في داخلي فراغ فقط... كان هناك شعور ثقيل بأن الليلة المقبلة لن تشبه الليالي السابقة.
وبالفعل: خلال يومٍ واحد فقط، كانت الأحداث تتسارع، والقصف يتوسع، والسماء تنزل أكثر على الأرض... حتى جاء اليوم الذي سُمّي رسميًا بداية العملية العسكرية الكبرى بعد يومين.

لكننا لم نكن نعرف بعد أن ما حدث في السادس من تموز لم يكن ذروة التصعيد، بل كان مقدمته فقط.
في المساء التالي، كانت السماء تتحرك بطريقة مختلفة، وكانت نشرات الأخبار تتبدل لهجتها، وكأن أحدًا ما قرر أن يرفع الغطاء عن الجحيم قليلًا. لم تمضِ سوى ساعات قليلة، حتى صار واضحًا أن غزة تدخل فصلًا جديدًا

بالكامل؛ فصلًا لن يكون فيه القصف ‘‘متفرقًا’’، ولا الردّ ‘‘موضعيًا’’، بل مواجهة مفتوحة سيُعلن عنها رسميًا في اليوم التالي، ويُطلق عليها كل طرف اسمًا مختلفًا... بينما سيدفع الناس ثمنها باسمٍ واحد: الحرب.

***